فكاهات

رواية

الانتقام (١)

كانت بلاد النمسا ايالاتٍ يتولى عليها الحكام بامر امبراطورها ولكل ايالةٍ محاكم خصوصية مرجعها الى العرش الامبراطوري في ڤينا . وكان في احدى الايالات الجنوبية المسماة كريتيا فتًى في الثامنة عشرة من عمرهِ يُدعى ثيودور كان قد توفي والدهُ وربي في بيت عمهِ وكان عمهُ قسيساً عالماً فاعتنى بتهذيبهِ وتعليمهِ فما بلغ السن المذكورة حتى احرز حظاً صالحاً من العلم ونشأ على الآداب الحسنة . واتفق يوماً ان ثيودور خرج الى غابةٍ بقرب بلدتهِ للتنزه وبيدهِ كتاب يطالعهُ فبينا هو يتمشى في جوانب الغابة استدعى انتباههُ صوت فتاةٍ تستغيث فاسرع الى ناحية الصوت وقبل ان يدرك الطريق رأى عربةً يجرها فرسٌ قد جمح وجعل ينهب الارض ولم يكن في العربة سوى فتاةٍ تبلغ السابعة عشرة من سنيها لم تقوَ يداها الضعيفتان على كبح جماح الفرس الشارد فاستسلمت للقضآء وكان صوت دواليب العربة يزيد الفرس نفوراً فيشتد ركضهُ . ولم يكن بعد ذلك الا لحظةٌ حتى صارت العربة بقرب ثيودور ورأى الفتاة فيها على تلك الحال فلم يسعهُ الا ان هجم

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

لتخليص تلك الفتاة المسكينة ولم يكن معهُ شيء يستطيع بهِ رد جماح الفرس سوى عصاهُ فرفعها وضرب بها رأس الجواد بمنتهى قوتهِ فوقف للحال واسرع ثيودور فقطع عنانهُ وربطهُ بهِ الى شجرةٍ قريبة ثم انزل الفتاة وكانت قد أُغمي عليها فوضعها على الارض وجعل يتأمل في وجهها فرأى من بديع التكوين وجمال الطلعة وبهآئها ما سلب رشدهُ وخلب فؤادهُ ولبث كذلك حيناً وقد اذهلهُ ذلك المنظر عما يجب صنعهُ في تلك الساعة . ثم انتبه فجأةً كمن افاق من نوم عميق وجعل يعدو في تلك الناحية حتى اصاب موضعاً فيهِ ماءٌ فاغترف منهُ في طاس كان معهُ وعاد الى الفتاة فرشهُ على وجهها ثم اخذ يفك ما على صدرها من الازرار ليفرج عنها وبينما هو يتأمل في ذلك البياض الناصع واللون الفضي فتحت الفتاة عينيها وقالت اين انا . فقال لا تخافي ايتها السيدة فانتِ في سلام . ولم تطل مدة مكثها على تلك الحالة حتى نهضت ولما علمت بما جرى جعلت تثني على ثيودور وتشكر احسانهُ لانقاذها من الموت . وكان ثيودور كالمسحور بجمالها فلم يجب بكلمةٍ ثم جثا على ركبتيهِ امام تلك الفتاة واعترف لها بمحبتهِ وبعد ان جلسا حيناً يتحادثان وقد وقع من قلبها مثل موقعها من قلبهِ سأل عن اسمها فاخبرتهُ ان اسمها كاترين وان اباها من اشراف البلاد . ثم اخذا يتجاذبان حديث الحب ولما وثق بميلها اليهِ عرّض لها بطلب الاقتران فسألتهُ عن اسرتهِ وشغلهِ ومقامهِ فاعلمها انهُ من اسرةٍ كريمة تعرف بآل كرتور قال واما شغلي ومقامي فاني لم اختم دروسي الاّ من بضعة اسابيع ولكني مع ما حصلتهُ من العلم وما اعلم في نفسي من علوّ الهمة والاقدام على الامور اؤمل مستقبلاً حسناً . وبعد

حديثٍ طويل اجلى اجتماعهما عن تصميم ثيودور على دخول الجندية آملاً ان ينال ببسالتهِ واقدامهِ مقاماً سامياً وشرفاً رفيعاً يؤهلهُ للحصول على كاترين ووعدتهُ هي ان لا تميل الى سواهُ وانها ستحافظ على محبتهِ وولآئهِ وتنتظرهُ ما شآء الله الى ان يبلغ المقام المطلوب . وبعد ذلك نهضا فاركب ثيودور كاترين في عربتها وركب الى جانبها حتى اوصلها الى البيت خوفاً من تكرُّر ما حدث سابقاً ثم ودعها وسار وهي تشير اليهِ بمنديلها وترافقهُ بدعآئها

وعاد ثيودور الى عمهِ فاعلمهُ بتصميمهِ على دخول الجندية وطلب اليهِ ان يكلم القائد كروزكي في امرهِ فسرّ عمهُ لهذا الامر ووعدهُ خيراً وكان ذلك في اثنآء المعارك العظيمة التي كانت قائمة بين دولة النمسا والدولة العثمانية . ولما كان الصباح التالي اخذ كرتور ابن اخيهِ ثيودور وتوجها الى مقام القائد كروزكي فلما وقف ذاك على رغبة الفتى اظهر سرورهُ وقبل حالاً انضمامهُ الى فرقتهِ . ولم يأتِ على ثيودور ايامٌ كثيرة حتى عُيّن في الجندية فارتدى الثوب العسكري وجعل يتمرّن مع العساكر واحبهُ القائد كروزكي كثيراً فكان يعاملهُ كولدهِ ويمهد لهُ سبل التقدم والنجاح . وكان الحب المتبادَل بين ثيودور وكاترين في ازدياد دائم وكانت تأتي كل يوم الى محل عرض الجنود فتمتع نظرها بمرأى ثيودور وهو يتخطر كالغزال ويراها هو فيتنعش فؤادهُ

وكان حاكم كريتيا ظالماً عاتياً سفاحاً قد اجتمعت فيهِ اقبح الصفات وارداً الخصال ولم يكن عليهِ آمرٌ في ايالتهِ فاستعمل ما شآء من المظالم والقسوة وكان اذا مرّ في شارع اوجب على القوم جميعاً ان يخرجوا من محلاتهم

الى الطريق ويقفوا لاستقباله ورؤوسهم محنيّة. وحضر يوماً الى محل تمرين العساكر فرأى كاترين في عربتها فسأل عنها فقيل لهُ انها مخطوبة لجنديٍّ يدعى ثيودور. فاستآء من مجرد ذكر الامر امامهُ وقال هل بلغ من هؤلآء الجنود المحتقرين ان يفتكروا بامر الحب ايضاً لا شك ان ذلك من نقص تدريب القائد كروزكي فينبغي ان انبههُ الى مثل هذا الامر الذي لا اسمح بجدوثهِ. ثم اسرع بجوادهِ ليبلغ الامر الى القائد وبينما هو سائرٌ بين الصفوف رأى جندياً لم يحنِ رأسهُ اجلالاً لهُ فسأل عنهُ فاخبروهُ ان هذا ثيودور خطيب الفتاة. فهاج غيظهُ الكامن وبلغت منهُ الحدة مبلغها فصاح بهِ احنِ رأسك ايها الغلام امام مولاك واحذر ان ترفع نظرك اليَّ بعد الآن. ولم يكن ثيودور معتاداً سماع مثل ذلك فهاج الدم في رأسهِ والقى نظراً حادًّا في وجه الحاكم ولم يجبهُ. فزاد ذلك في غيظ الحاكم فلكز جوادهُ حتى اقترب من ثيودور ثم رفع سوطهُ وضربهُ بهِ ثلاثاً قائلاً يظهر انك حديث الخدمة ايها الوغد فيجب ان ينالك شيءٌ من التربية. ولكنهُ ما كاد يلفظ الكلمات الاخيرة حتى رمى ثيودور بندقيتهُ من يديهِ ووثب الى الحاكم فاقتلعهُ من السرج باسرع من لمح البصر وضرب بهِ الارض. وللحال هجم الحرس فامسكوا ثيودور وانهضوا الحاكم فرجع الى بيتهِ وهو يرغي ويزبد واصدر حكماً عاجلاً بقتل ثيودور في الصباح الثاني

وبات ثيودور تلك الليلة في سجنهِ يفكر فيما حدث لهُ في يومهِ وقد ايقن بحلول الاجل وانهُ لا بد من قتلهِ في صباح الغد. وانهُ لكذلك واذا بباب سجنهِ قد فُتح ودخل عليهِ القائد كروزكي ثم قال لهُ اني اعزك يا

ثيودور كولدي واني لفي غاية الاسف على ما حصل اليوم وقد احضرني اليك الآن اني سمعت من احد اخصآء الحاكم انهُ ندم على حكمهِ العاجل وهو يود خلاصك ان كان في الامكان لانهُ هو كان البادئ باهانتك وعليهِ فانا اشير عليك ان تطلب مواجهتهُ فتجثو على اقدامه وتسألهُ العفو فلا يبخل عليك بهِ . فقال ثيودور أأتنازل لهذا الوحش الضاري وانا لست مجرماً كلاً فاني افضل ان يقطع حبل حياتي عاجلاً على ان اركب مثل هذا الذل . قال كروزكي ولكنك فتىً في اوائل العمر يا ثيودور وامامك حياةٌ باسمة ومستقبل سعيد أفلا يستحق ذلك تنازلك القليل للحاكم مهما كانت صفاتهُ . فجعل ثيودور يفكر في حبيبتهِ كاترين وفي موتهِ العاجل بعد ان كان قد وطد الامل على احراز مايؤهلهُ للاقتران بها والسعادة بقربها فلم يملك عينيهِ من البكآء . ثم نظر الى قائدهِ فقال انك بكلامك تكسر قلبي وتضرب على اشدّ الاوتار تأثيراً فيَّ فاتوسل اليك ان لا تسهّل عليَّ هذا الامر فقد وطّنت نفسي على لقآء المنيّة وهدم مستقبل حياتي دون الاذعان للتنازل الى هذا اللئيم فانهُ لن يراني جاثياً امامهُ وفيَّ من الحياة بقيّة

ولما رأى القائد ان لا امل في اقناع ثيودور ودّعهُ معانقاً اياه والدموع تخنق كلماتهِ وخرج . وعاد ثيودور الى التفكر في امرهِ فغرق في بحر تأملاتهِ الى ما بعد منتصف الليل وحينئذٍ فُتح باب سجنهِ ثانيةً وكان الداخل في هذه المرة كاترين فوثب ثيودور لاستقبالها وقد اخذهُ اشد العجب من حضورها اليهِ في مثل تلك الساعة فاشارت اليهِ ان يصمت واخذت تقص عليهِ حديث مجيئها فقالت انني ذهبت الى بيت القائد كروزكي لاطلب منهُ جوازاً

يبيح لي المجيءَ اليك فقيل لي انهُ هنا فانتظرتهُ ريثما عاد وكان حزيناً جداً فلم يذق طعاماً ولم يواجه احداً من أسرتهِ واوصى الخدم ان لا يأذنوا لاحد في الدخول عليهِ. اما انا فالححت في طلب مقابلتهِ ولما علم اني انا خطيبتك اذن لي في ذلك وذكر لي ما دار بينكما من الحديث ثم اعطاني الجواز الذي بهِ تمكنت من الدخول اليك في سجنك . والآن وقد صممت على لقآء المنيّة مفضلاً اياها على السقوط امام هذا الحاكم الجائر فليس لي ما اقولهُ في ذلك ولكن جئتك يا حبيبي ثيودور لأُسهل لك سبيل الفرار فهلمَّ بنا واخرج من سجنك واهرب في هذا الليل الدامس الى حيث تأمن هذا الوغد وجدَّ هناك في تحسين احوالك حتى اذا قرَّرت امر مستقبلك تستقدمني اليك فاوافيك ونقضي بقية ايامنا معاً . فكان ثيودور يسمعها بسرور ولكنهُ لم يلبث ان انتفض فجأةً وقال لا لا كيف اهرب واعرّض حياة البريء لتجرع كأس الموت مكاني فانني اذا فررت لا يتأخر الحاكم عن استدعآء السجان ومعاملتهِ بما كان مُعدًّا لي . قالت كاترين ولكني قد تداركت ذلك ورشوت السجان واقنعتهُ بالفرار معك الى ان تخرجا من البلدة فيذهب كلٌّ الى سبيلهِ . فتبسم ثيودور ثانيةً ثم قال ولكن ألا أُحسب جباناً اذا فررت من الموت . قالت ان الوقت اضيق من ان اجادلك في هذه الامور ولكن اسمع يا ثيودور انك قد وهبتني حياتك فلم يعد لك حق التصرف فيها وانا اريد ان تحافظ على هذه الحياة فاياك ان تعصيني واني قد جهزت لك كل شيء فهلمَّ بنا فالوقت ثمين . ثم وضعت في يدهِ كيساً من النقود وقالت خذ هذا فربما ساعدك في سفرك واذا خرجت من هنا ترى عند الباب الثاني جواداً فاركبهُ

وسر على بركات الله . فوقع ثيودور على عنق كاترين يقبلها ويودعها وهي تلحّ عليهِ بالاسراع في الخروج حتى خرج فرأى السجان في انتظارهِ مع الجواد فركب الاثنان وسارا يخفيهما ستار الليل المدلهمّ . ولما خرجا من المدينة فصل السجان عنهُ وسار في طريقهِ وانطلق ثيودور بحصانهِ في وجه البر وهو لا يدري الى اين يذهب او ماذا يفعل

ولبث ثيودور يتردد مستخفياً في بعض قرى كريتيا وهو يتنسم اخبار الحاكم من حيث لا يُشعَر بهِ فبلغهُ يوماً انهُ طلبهُ في صباح اليوم الثاني من سجنهِ ولما علم بفرارهِ مع السجان بلغ منهُ الحنق ان صبّ كاس انتقامهِ على اسرة ثيودور فقتل عمهُ ونفى زوجة عمهِ وهدم بيتهُ الى اساسهِ ولم يكن ثيودور ينتظر مثل هذه القساوة البربرية فجعل يفكر في الانتقام من هذا الحاكم . وكان في تلك الاثناء ان ابتدأت المناوشات بين الجيوش التركية والنمساوية على الحدود الفاصلة بين المملكتين فعزم ثيودور ان ينضمّ الى الجيش التركي عسى ان تمكنهُ الفرص من الاخذ بثار عمهِ وشفآء حزازات صدرهِ فطفق يُجدّ السير ويصل ليلهُ بنهارهِ حتى بلغ الآستانة وهناك اجتهد حتى وُفق الى مواجهة وزير الحربية فاطلعهُ على بعض ما في نفسهِ وميلهِ الى الانتظام في سلك الجندية التركية ونال ثيودور حظوةً في عيني الوزير فقبلهُ في الجند وقلدهُ رتبة ضابط وفوض اليهِ قيادة فرقةٍ من عساكرهِ . وكان ذلك جل ما يتمنى ثيودور فطارت نفسهُ فرحاً وجعل يهتم في تدبير عساكرهِ وتدريبهم ورأى الوزير رغبتهُ واستقامتهُ فبعث بهِ مع الحملة السائرة الى حدود النمسا لمقابلة جيوشها وصدهم عن الدخول الى الحدود العثمانية . وكان ثيودور يسير

كمن يسير الى مأدبةٍ حتى بلغت الجيوش الحدود وانتشبت المعارك بين المملكتين على ما هو معلوم في التاريخ . اما ثيودور فكان يزجُّ بنفسهِ الى اشد مواقع القتال خطراً ولا ينفك في طليعة جنودهِ يشجعهم ويحثهم على الاقدام وكانت رغبتهُ في الانتقام من الحاكم من جهةٍ والسعي في سبيل الارتقاء من جهةٍ اخرى يزيدانهِ جرأةً وتفانياً في الحرب فلم يمرّ بجيشٍ الا ابادهُ ولا ببرجٍ الا غادرهُ دكًّا ولا قريةٍ الا تركها رماداً . وكانت اشهر مواقعهِ في كريتيا حيث اشتبك القتال ورأى الحاكم في مؤخر العسكر يراقب القتال فشق ثيودور بجنودهِ صفوف الاعداء حتى بلغ الحاكم وتقابل الاثنان . ولما رأى الحاكم ثيودور عرفهُ فاستلّ سيفهُ وهجم عليهِ وهو يقول اليك يا خائن الوطن والدين . فاطبق ثيودور عليهِ ولم يمهلهُ ريثما استل الحسام حتى طعنهُ في صدرهِ فارداهُ قتيلاً فصاحت الجنود العثمانية بالتهليل والتكبير وولت جنود النمسا الادبار فتبعهم ثيودور برجالهِ مسافة خمسة اميال

وكانت تصل الى الآستانة التقارير اليومية عن اعمال الجنود و بلغ السدة الشاهانية افعال ثيودور فاحسنت اليهِ بالاوسمة السنية والجوائز الطائلة ولم يزل يتقدم ومنزلتهُ ترتفع في العيون مدة خمس سنوات متوالية حتى انقضت الحرب وقد نال لقب باشا واصبح لديهِ من المال والجاه ما ليس بعدهُ من مزيد

ولما خلا بالهُ واستقامت احوالهُ ارسل في طلب كاترين فوافتهُ مع والديها الى الاستانة فعُقد لهُ عليها و بعد ان اقام والداها عندهُ مدةً عادا الى بلادهما ولبث ثيودور بالاستانة محفوفاً بالاكرام والانعام وعاش مع زوجتهِ سعيداً مسروراً الى ان فرّق بينهما داعي الحمام